الماسونية

ما برحت الماسونية من يوم نشأتها على قِدَم عهدها عرضةً لألسنة القوم، يسلقونها بألسنة حداد ويسومونها ما شاءوا وشاءت الخيلاء من الأمور الصعاب. وقد ساءوا بها ظنًّا فأرادوا بها سوءًا، وهي بحمد ربك راسخة الأصول قويمة العماد حليفة السداد، لا تزيد إلا انتشارًا، ولا تدفع إلا أمورًا كبارًا، ذلك لأن عمادها الفضيلة وغايتها الكمال، ونصراءها أبناء الحرية الذين لا تأخذهم الصيحة ولا هم غافلون.

أيها العقلاء، إن الماسونية تخاطبكم فاسمعوا لها وهذا قولها: «مهلًا سادتي أرعوني من فضلكم أُذُنًا صاغية وقلبًا واعيًّا، وأرغب إليكم أن تبقوا حكمكم فيما أقول حتى آتي على النهاية. لقد أسأتم بي ظنًّا وأردتم بي سوءًا، على حين أني لم أنفك منذ القِدَم مصدرًا لتمدُّنكم وفيئًا لأعاظمكم، أجمع شتاتهم وأبذل النفيس في مرضاتهم. أَلَمْ أكن مدرِّبة لحكامكم مدبِّرة لأحكامكم، ساعية في نشر الفضيلة بينكم؟ أَلَمْ أردع أقوياءكم حين ظَلَموا وأنصِفُ ضعفاءكم حين ظُلموا؟ كم سقطتم فأنهضتكم! وكم تبعثرتم فجمعت شتاتكم! وكم كنت نصيرة للعدل والمساواة بينكم ولم أتعرض لكم في شيء من دينكم!

وإني في كل ذلك لم أكلفكم أجرًا، ولم أغادر من داعيات فَلَاحِكُم أمرًا، فما ضركم إذا كنت أفعل ذلك سرًّا أو جهرًا؟!

إذا قلت لكم هذه مقاصدي فافهموها، قلتم هذه بهرجة وإن وراء الأكمة ما وراءها، وأبيتم إلا أني حييت لإماتة الفضيلة، واجتمعت لتشتيت السلطة والديانة، فلا أدري كيف أخاطبكم، ولا بأي السبل أتطرق إلى إقناعكم، رغمًا عن شدة رغبتي في الإخلاص لكم والتقرب منكم، قيامًا بما تفرضه عليَّ الإنسانية وتأمرني به الواجبات الماسونية.

أراكم تشددون النكير على أن من وراء التستر ما يوجب المظنَّة، وإلا فالمكاشفة أولى وأحرى. على أني ألتمس لكم على ذلك بعض العذر، سيما وإن كل محجوب مرغوب.

غير أني لا أخفي عنكم أن ليس بين أسراري ما يهمكم استطلاعه، إنما هي إشارات ورموز جُعِلت واسطة للتعارف بين أبنائي المختارين، فلا يقوى غير المختار على التلبس بالدعوى، فيسترق من حقوقهم المقدسة ما ربما لا يكون له أهلًا فيفسد في الأرض، فإذا كثر أمثاله عمَّتِ البلوى، وربما آلت إلى انفصام عروتي والعياذ بالله. ولا يفوتكم أيضًا أن القوم إذا تعاهدوا على أمر باجتماع الأيدي، يزيد ائتلاف قلوبهم إذا جعلوا بينهم ما يتعارفون به ويكون خاصًّا بهم.

تلك سُنَّةٌ قد جرى عليها كثيرات من أترابي في الأزمنة الخالية بين سائر الأمم المتمدنة في الهند وآشور ومصر وفينيقية وسوريا واليونان وغيرها. لم يكن دأبهن إلا رَفْع منار العلم والفضيلة حيث أَقَمْنَ، وقد لاقين كما لاقيت وأُلَاقِي أنا بينكم، وقد ثبتن كما ثبتُّ وأثبت إن شاء الله.

فأنا على بينة من شريف مقاصدي وعظيم فوائدي، لا شيء يوقفني عن السعي وراءها، ولا أبالي بما يتهمني به المتهمون، أو يقوله القائلون على غير هدى. على أني لم أعدم نصراء من ملوككم وسلاطينكم وعلمائكم وفلاسفتكم وقادة أديانكم.

فما أنا خاشية سطوتكم، ولا أنا راجية نُصْرتكم؛ إنما أتقدم إليكم بلسان الصدق أن تعتقدوا صدق نيتي فيما أرجوه لكم من الإصلاح في دنياكم، ولله ما وراء ذلك وهو على كل شيء رقيب.» ا.هـ.